خطبة الجمعة

التي ألقاها أمير المؤمنين سيدنا مرزا مسرور أحمد أيده الله تعالى بنصره العزيز

الخليفة الخامس للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

بتاريخ ٢٠٢٦/١/٣٠

في المسجد المبارك بإسلام آباد في بريطانيا

*****

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرّجيم. ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

هناك وقائع كثيرة تدل على حب النبي ﷺ لله تعالى، بل إن كل عمل وواقعة في حياته تدل على أن بحرا زخّارا لحب الله كان يهيج في قلبه كل حين. ونرى مشهدا كهذا في غزوة أُحد أيضا حين عبّر النبي ﷺ عن محبة الله العارمة بأسلوب فريد. فعَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ لَقِيْنَا الْمُشْرِكِيْنَ يَوْمَ أُحد، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺجَيْشًا مِنَ الرُّمَاةِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللهِ وَقَالَ: لَا تَبْرَحُوْا مكانكم، إِنْ رَأَيْتُمُوْنَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوْا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوْهُمْ ظَهَرُوْا عَلَيْنَا فَلَا تُعِيْنُونَا (أي لا تتركوا مكانكم هذا في أي حال، سواء انتصرنا أو انهزمنا. ونرى عند انتهاء هذه الواقعة كم كان صدر النبي ﷺ يجيش بحب الله تعالى. يقول الراوي:) فَلَمَّا لَقِينَا الأعداء هَرَبُوا حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ إلى الْجَبَلِ وقد رَفَعْنَ عَنْ سُوْقِهِنَّ وبَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ. فَأَخَذ المسلمون يَقُوْلُوْنَ: الْغَنِيْمَةَ، الْغَنِيْمَةَ. فَنهى عَبْدُ اللهِ أصحابه عن ذلك، وقال لهم: قد عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَّا تَبْرَحُوْا. فَأَبَوْا، فَلَمَّا أَبَوْا وتركوا الممر وذهبوا لجمع الغنيمة، صُرِفَ وُجُوهُهُمْ، أي أن الله تعالى أيضا أعرض عنهم وانقلب وضع القتال وأعاد العدو الهجوم، فَأُصِيْبَ سَبْعُوْنَ من المسلمين واستُشهدوا. يقول الراوي: وبينما كان النبي ﷺ لائذًا مع أصحابه بسفح الجبل، إذ أَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ ونادى فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ النبي ﷺ: لَا تُجِيْبُوْهُ. فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ فقَالَ ﷺ: لَا تُجِيْبُوْهُ. فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ فلما لم يجد أبو سفيان جوابا قَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ قُتِلُوْا كلهم، فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءً لَأَجَابُوا. فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ رضي الله عنه نَفْسَهُ فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللهِ، أَبْقَى اللهُ عَلَيْكَ مَا يُخْزِيْكَ. فقَالَ أَبُو سُفْيَانَ وهتفَ: اعْلُ هُبَلْ. فأصاب النَّبِيَّ ﷺ قلقٌ شديد وقال: أَجِيْبُوْهُ. فقَال الصحابة: مَا نَقُوْلُ؟ قَالَ ﷺ: قُوْلُوْا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ. فقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَجِيْبُوْهُ. قَال الصحابةُ: مَا نَقُوْلُ؟ قَالَ ﷺ: قُوْلُوْا: اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ. وهذا يعني أنه فيما يتعلق بغيرته وحبه لله تعالى فإن النبي ﷺ لم يكترث لحياته، بل لم

يلبث أنه أمر صحابته بأن يردوا على أبي سفيان، مع أنه ﷺ كان لا يريد من قبلُ أن يردّ على أبي سفيان لمصلحة وحكمة.

لقد تناول حضرة المصلح الموعود ﷺ أيضا هذه الواقعة بالبيان على ضوء ما ورد في التاريخ، فقال: الصحابة الذين كانوا حول النبي ﷺ والذين كانت هجمة الكفار المفاجئة قد دفعتهم إلى الوراء اجتمعوا حول النبي ﷺ من جديد فور انسحاب الكفار، فحملوا جسد النبي ﷺ المبارك إذ كان قد سقط مغشيا عليه، ونزع الصحابي أبو عبيدة بن الجراح ﷺ بأسنانه بشدةٍ المسمارَ الحديدي الذي دخل في رأس النبي ﷺ فانكسر اثنان من أسنان أبي عُبيدة، وبعد قليل أفاق النبي ﷺ من الإغماء الذي أصابه جراء الجروح كما ذكرت آنفا، فأرسل الصحابةُ رجالا منهم إلى ساحة القتال ليخبروهم أن النبي ﷺ لا يزال حيا، فليجتمعوا كلهم، ذلك أن العدو كان قد أشاع بأن النبي ﷺ قد قُتل، والعياذ بالله، فاجتمع ثانيةً الجيشُ المسلم الذي كان قد تفرّق وتشتّتَ، فأخذهم النبي ﷺ إلى سفح الجبل. وبينما كان الجيش المتبقي مجتمعا في سفح الجبل، صاح أبو سفيان بأعلى صوته وقال: لقد قتلنا محمدا. فلم يرد عليه النبي ﷺ مخافة أن يطّلع العدو على وضع المسلمين الضعيف فيهاجمهم من جديد، إذ كان المسلمون ما زالوا جرحى فلو هاجمهم العدو ثانية فلن يقدروا على الصمود له فيصبحون ضحية لهجومه. فلما لم يجد أبو سفيان أي جواب من جيش المسلمين أيقن أنه مصيب في ظنه، فصاح بأعلى صوته: لقد قتلنا أبا بكر أيضا. فنهى النبي ﷺ أبا بكر أيضا عن الجواب. فأعلن أبو سفيان: لقد قتلنا عمر أيضا. وكان عمر ﷺ شديد الحماس فأراد أن يردّ على أبي سفيان بأننا بفضل الله أحياء ومستعدون للتصدي لك، ولكن النبي ﷺ منعه من ذلك قائلا اسكتْ ولا تُلْقِ المسلمين في المشكلة. إننا في ضعف في هذا الوقت، ولو شن العدو الغارة الآن فقد نتكبد مزيدا من الخسائر.

عندها أيقن الكفار أنهم قد تمكنوا مِن قتلِ مؤسسِ الإسلام وساعِدَيْه، الأيمنِ والأيسر، فهتف أبو سفيان وأصحابه فرحين: أُعْلُ هُبَل، اعلُ هُبَل، أي أن العزّ لصنمنا هُبَلَ الذي قضى على الإسلام اليوم. وإن رسول الله ﷺ –الذي كان مِن قبل ينهى صحابته عن الرد على أبي سفيان عند ادعائه قتْلَه ﷺ وقتلَ أبي بكر وعمرَ مخافة أن يعيد العدو الكَرّة على هذه الحفنة من المسلمين الجرحى فيُستشهدوا بأيدي الكفار– لما رأى الهجوم على وحدانية الله تعالى وسمعَ هتاف الشرك لم يملك نفسه واضطربت روحه اضطرابا شديدا، فقال للصحابة بمنتهى الحماس: لماذا لا تردّون؟ فقالوا: يا رسول الله، بماذا نردّ؟ قال: قولوا: اللهُ أعلى وأجلّ، الله أعلى وأجلّ، أي كذبت في قولك أن هبل قد عَلا.

إن الله وحده لا شريك له، هو العليّ العظيم وليس هبل. فبهذا أبلغ النبيُّ ﷺ الأعداءَ خبر حياته أيضا.

كان تأثير هذا الجواب الشجاع والجريء على جيش الكفار عميقا جدا بحيث خابت آمالهم، ورغم أنه لم يكن أمامهم سوى حفنة من المسلمين الجرحى الذين كان مهاجمتهم وقتلهم ممكنا تماما بحسب الحسابات

المادية إلا أنهم لم يجرؤوا على الهجوم مرة أخرى واكتفوا بما حققوه وعادوا إلى مكة يهللون لنصرهم بفرح ونشوة.

كان رسول الله ﷺ لا يدع أبدًا شائبة شرك تدخل في محبته لله تعالى. وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: أجعلتني لله عدلاً؟ بل (قل) ما شاء الله وحده. فلا يجوز أن يدخل في ذلك شيء من جوانب الشرك ولو كان قليلا.

إن بعض الناس يقولون كلاما مثل: ما شاء الله وما شئتَ. أما الجائز قوله فهو: ما شاء الله تعالى، فبفضله وبالدعاء تحل البركة. فهذا جائز مادام الأمر مقرون بالدعاء، لكنه من الخطأ القول: "ما شئت"، لأن النبي ﷺ أنكره بشدة.

ثم كان يشغل باله ﷺ ألا يتخذ الناس قبورًا أماكن عبادة لهم، لكن للأسف يحدث اليوم العكس تماما. وكما ذكرت سابقا أن المسلمين يتوجهون إلى قبور الأولياء والزهاد فيعبدونها ويسجدون عندها، مع أن النبي ﷺ نهى عن اتخاذ القبور مساجد.

عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ (أي في وقت أخير من حياته): لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ. قَالَتْ: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ غَيْرَ أَنِّي أَخْشَى أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا.

فما أُبرز قبره حتى لا يتخذه الناس مكان عبادة لهم.

أما اليوم فقد أعدّت الحكومة هناك ترتيبات رسمية حوله، بإنشاء أسوار وجدران حتى لا يظهر هناك أي شكل من أشكال الشرك. فإنهم أحسنوا هذا العمل على الأقل، لأن النبي ﷺ كان يكره الشرك أشد الكراهة.

وورد في رواية عن وحدانية الله تعالى عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: "قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ" فَالصَّمَدُ:الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُولَدُ إِلَّا سَيَمُوتُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يَمُوتُ إِلَّا سَيُورَثُ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمُوتُ وَلَا يُورَثُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. قَالَ: لَمْ يَكُنْ لَهُ شَبِيهٌ وَلَا عِدْلٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.

كان رسول الله ﷺ لا يفوت أي فرصة إلا ويذكر فيها توحيد الله تعالى، وكان كل لفظ من ألفاظه يفيض بحب الله تعالى. ففي كل مناسبة كان يتكلم فيها، يظهر من كل كلمة أن قلبه مليء بحب الله تعالى، بل إن قلبه مليء بحبه وحده، ولا شيء غيره فيه.

عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ هَلْ تَدْرُوْنَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ عَزَّوَجَلَّ؟ (إن الله تعالى يعلم ما في القلوب، فقد علم ما خطر ببال الناس عند رؤية المطر، فأطلع الله النبي ﷺ على ذلك) قَالُوا: اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِيْ مُؤْمِنٌ بِيْ وَكَافِرٌ (أي بعد رؤية المطر ليلا أصبح بعض الناس بحيث كان

البعض منهم مؤمنين فيها وبعضهم كافرين) فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، (كانت عبادة النجوم موجودة في ذلك الزمان، وكان جانب التربية ضعيفا أيضا. فكثير من الناس كانوا مشركين سابقًا وكانوا حديثي العهد بالإسلام آنئذ، فكان البعض منهم يقول أحيانًا: مُطرنا بنوء كذا أو بسبب النجم الفلاني) وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ.

فقال الله تعالى له ﷺ: يا محمد ﷺ: أخبر الذين آمنوا بك أيضا –كما تدرك أنت تمام الإدراك لوحدانية الله تعالى– أنه بأي دقة ينبغي لهم أن يقروا بتوحيد الله تعالى ومحبته في كل أمر، وبأي دقة ينبغي أن يؤمنوا به يقينا من أعماق قلوبهم.

عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْمُوجِبَتَانِ؟ (أي ما الأمران الموجبان للجنة أو النار؟) فَقَالَ: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ.»

فهذا هو الجواب الكافي لكل من يسأل: ما هو الشرك؟

ولقد قال المسيح الموعود عليه السلام أيضا:

إن الذي يتكل على الوسائل والنفس ويتكل على جدارته وثروته وعائلته وقبيلته وذريته، وكلِّ ما يتكل عليه دون أن يؤثر اللهَ عليه ويتكل عليه دون أن يذكر الله ﷻ فهو يرتكب الشرك.

إذن يجب أن نظل نفحص أنفسنا بهذه الدقة، لنجتنب الشرك، ونعمل بهذا التعليم، ونخلق في قلوبنا حب الله على الدوام. ثم بين ﷺ بدقة أكثر فقال في موضع:

عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ قَالُوا وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الرِّيَاءُ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً. (أي كنتم تنجزون بعض الأعمال من أجل أن تُروهم فاستعينوا بهم هم أنفسهم.) فالرياء أي المبادئ المصطنعة من أجل رياء الناس بغيضةٌ جدا عند الله، لأنكم لم تنجزوا تلك الأعمال ابتغاء مرضاة الله، بل أنجزتم رياء وإرضاء هؤلاء الناس. يجب أن نفحص أنفسنا أيضا بهذه الدقة بأي نية نعمل. فلن تجديكم أي وسيلة نفعا يوم القيامة، وإنما ينفعكم في الحقيقة فضلُ الله ﷻ والعملُ بسنة النبي ﷺ وطاعتُه واتباعُه فحسب، فهو ما يحبه ﷻ إذ قد قال بنفسه: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣٢) فقد استصدر الله ﷻ منه ﷺ الإعلان أن يقول للناس فاتبعوني يحببكم الله.

لقد ورد في حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيمَانٌ بِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي (فالشرط أن يكون إيمان المرء قويا ويخرج للجهاد مؤديا حق اتباع الرسول والبيعة) أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَلَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ. فقد أبدى النبي ﷺ رغبته.

يقول حضرة سيد ولي الله شاه في شرح هذه الرواية من البخاري، حين قال النبي ﷺ لو لا أن أشق على أمتي لفعلتُ ذلك، فالمراد منه أن النبي ﷺ كان قد لاحظ جيدا أن الصحابة كانوا حريصين جدا على اتباعه ﷺ، فغالبيتهم كانوا حريصين على اتباع النبي ﷺ. كان في أسوته الحسنة جاذبيةٌ وتأثير كبير حيث كان يخطر بباله ﷺ أمتُه دوما عند إنجاز الأعمال، وكان يخشى أن يشق عليهم بعمله، أي إذا فَرض كل شيء فسوف تتحمل الأمة مشقة، لذا قد قال إنني لا أخرج أحيانا حتى لا أشق عليكم.

يتابع سيد ولي الله شاه ويقول: كان النبي ﷺ يعشق ربه حتى قال ذلك أعداؤه، عشِق محمد ربَّه، لكنه كان يتمالك نفسه أيضا ويتحكم فيها، ولم يتركه العقلُ أيضا ولا لحظة واحدة، فالذين يميلون إلى الإفراط في أعمالهم فلهم في ذلك درسٌ، فاتباع العواطف عميانا، لا يدل على كمال الإيمان ولا يمثل حسنة مُثلى. بعض الناس يقولون إننا نبدي غيرة، لذا يجب أن نفعل كذا وكذا، لكن الله ﷻ يحب الاعتدال، وكمالُ الصلاح البقاء على الأوسط، لأن ذلك يتطلب مجاهدة النفس. فهنا جهد مع النفس وحب الله أيضا، وعلى الإنسان أن يعمل واضعا كليهما في الاعتبار، لا أن يسير أعمى. فقد أرانا النبي ﷺ بتقديم أسوته طريقا، حيث كان قد بلغ منتهى الحب الإلهي، وأبدى أمنيته بالكمال أيضا، وبلغ غاية التضحية أيضا، إلى جانب العقل والطريق الأوسط، وذلك لأن الله ﷻ قد أمر باتخاذه.

في رواية أنه ﷺ كان يكره جدا الاستعانةَ بالمشركين، فعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ بَدْرٍ فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ (وهي على مسافة ثلاثة أميال غرب المدينة) أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ (أنه يشاركهم في القتال) فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ (وأنصرك) قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟ قَالَ لَا قَالَ فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ قَالَتْ ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ (الواقعة في ذي الحليفة على مسافة سبعة أميال من المدينة، وكان ﷺ لبس الإحرام أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَالَ فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ قَالَ ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ (وهي بعد ذي الحليفة بين المدينة ومكة) فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ نَعَمْ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَانْطَلِقْ.

فالآن يمكنك أن تأتي معنا. فمهما كانت الظروف، فإن محبته لله تعالى وغيرته تمنعانه من الاستعانة بمشرك، ولا سيما في عمل يبتغى به وجه الله تعالى ونصرة الدين.

قال المصلح الموعود ﷺ: انظروا إلى رسول الله ﷺ ما أعظم معرفته، وما أشدَّ احتياطه، وما أصدقَ خوفه من الله تعالى. ومع أنه أكملُ البشر جميعا، ومنزَّهٌ عن كل أنواع الذنوب، ومحفوظٌ بحفظ الله ورعايته، لكنه، مع كل هذه القداسة والطهارة، كان يخشى الله في كل حين، ويفعل الخير تلو الخير ويأتي بأعلى الأعمال وأرفعها. كان يُتبع الحسنة بالحسنة ولم يكن هناك مجال لظهور أدنى أثر للشر أصلًا. ولم تكن فيه شائبة قط. كان يأتي بأسمى الأعمال وأرفعها وكان مشغولًا بالعبادة الإلهية في كل وقت ومع ذلك كان يخاف الله

خوفا شديدًا. فكان يحتاط ما استطاع من جانبه، ولكن حين كان ينظر إلى غنى الله تعالى ويرى جلاله كان يتبرأ من جميع أعماله في حضرة الصمد ويستغفر، ويتوب إليه في كل مناسبة. عن أبي هريرة ﷺ قال إنه سمع النبي ﷺ يقول: والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة. هذه رواية صحيح البخاري. وهذا العدد سبعون يُستعمل أيضا بمعنى الكثرة في اللغة العربية. أيْ أفعل ذلك مرات لا تُحصى.

وكان من شدة محبته لله تعالى أن لسانه الشريف كان يبقى معطرا بذكر الله في كل حال، تروي السيدة عائشة رضي الله عنها أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ كَانَ يَذْكُرُ اللهَ عَلى كُلِّ أَحْيَانِهِ. (سنن ابن ماجة) كما ذكر حضرة المصلح الموعود ﷺ أيضًا، ويثبت من الأحاديث أن لسانه كان يذكر الله في كل وقت. يروي سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ أن النبي ﷺ قال: اَرْبَعٌ أَفْضَلُ الْكَلَامِ لَا يَضُرُّكَ بِاَيِّهِنَّ بَدَأْتَ: وما هي؟ الأولى: سبحان الله، الثانية: الحمد لله، الثالثة: لا إله إلا الله، الرابعة: الله أكبر. (سنن ابن ماجة) فهذه الأمور، إذا بقيت حاضرةً في ذهن الإنسان دائمًا، وكان منتبهًا لها في كل وقت، سواء عند التحدث أو أثناء العمل، وجعلها نصب عينيه باستمرار، فإن فيها بركةً كلها.

وكذلك ورد عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، (أي أن هناك قوانين وقواعد وأحكام كثيرة وأمور الخير قد أصبحت كثيرة جداً بالنسبة لشخص مثلي. وكان الأعراب يسألون مثل هذه الأسئلة) فَأَنْبِئْنِي مِنْهَا بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ (أي أواظب عليه وأنتظم فيه وأكثر من فعله.) قَالَ ﷺ: لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. أيْ فليبقَ لسانك دائمًا رطبًا بذكر الله. (سنن ابن ماجه)

ثم ورد في رواية عن جَابِر بْن عَبْدِ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ اَلْحَمْدُ للهِ. (سنن الترمذى)

ورد عَنْ اَبِي أُمَامَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، وَلٰكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوْعُ يَوْمًا أَوْ نَحْوَ ذٰلِكَ، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ حَمَدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ. (مسند أحمد بن حنبل) لا أريد الذهب، بل أريد أن تبقى في ذاكرتي دائمًا. إذا زاد الذهب والثروة فلعل ذكرك ينتهي.

قال المسيح الموعود عليه السلام: لقد تحمل النبي ﷺ هذا الضيق أو المشقة على نفسه، أو إذا كانت ظروفه المادية ضعيفة، بل ينبغي القول: لم يكن ذلك لأن الله تعالى لم يعطه، فقد أعطاه الله تعالى ما لا يحصى، ولكنه في محبة الله تعالى وذكره اختار أن يعيش حياة الزهد والفقر، ومع ذلك فهذا لا يعني أنه كان ينكر النعم. فقد كان يتناول الطعام الطيب المطبوخ ويتمتع بالنعم أيضًا، وكان يشكر الله تعالى على ذلك.

وكذلك ورد في رواية عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَاءهُ أَمْرُ سُرُوْرٍ أَوْ يُسَرُّ بِهِ خَرَّ سَاجِدًا، شَاكِرًا للهِ تَعَالى. (سنن أبي داؤد) إن كل الشكر لله تعالى وحده، ومحبته تقتضي الحمد، وعبوديته تقتضي

الخضوع له فورًا وأداء الشكر له.

قال الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ ﷺ، قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ (من الجيد أن يتوضأ المرء قبل النوم) ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ وَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَهْبَةً وَرَغْبَةً إِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. قال ﷺ: فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ فَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ. فَقُلْتُ أَسْتَذْكِرُهُنَّ وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، قَالَ: لَا وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ} (صحيح البخاري، كتاب الدعوات)

يقول سيدنا المصلح الموعود ﷺ: ما كان النبي ﷺ يغفل عن الموت في أي وقت، وكانت خشية الله تعالى غالبة عليه إلى درجة أنه كان ينام كل ليلة وهو موقن بأن الموت قد يأتيه اليوم، وقد يمثل أمام الله تعالى اليوم. فكان ﷺ يعيش كمسافر يظن أن القطار سينطلق في أية لحظة، فلا يُشغل نفسه أبدًا بعمل يصعب عليه تركه. (فلما كان ضررويا عليه أن يركب القطار، فلا يريد أن يتأخر أو يفوته القطار، لذلك يبقى منتظراً القطار) كذلك كان النبي ﷺ مستعدًا دائما للذهاب إلى حبيبه، وكان يرى أن كل لحظة تمر بمحض فضله تعالى، وكان يتذكر الموت دائما.

عن حُذَيْفَة بِنْ اَلْيَمَانْ ﷺ،كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ اللَّيْلِ وَضَعَ يَدَه تَحْتَ خَدِّهِ ثُمَّ يَقُوْلُ: اَللهُمَّ بِاسْمِكَ أَمُوْتُ وَأَحْيَا. وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ: اَلْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ.

من هنا يتبين أن النبي ﷺ كلما لجأ إلى الفراش ليلا كان يفعل ذلك بعد أن يحاسب نفسه من جانبه، ويدعو الله تعالى قائلا: عندما أموت أموت باسمك وعندما أحيا أحيا باسمك. وعندما يستيقظ كان يحمده ﷻ على نعمته قائلا: لقد انفصلت عن الدنيا من ناحيتي، وإنما هو فضلك أنك أحييتني مرة أخرى وباركتَ في عمري. فكما يتبين من الدعاء الأول أن رسول الله ﷺ كان يتذكر الموت في كل حين، فإن هذا الدعاء أيضا يشهد على ذلك.

وهناك دعاء آخر يتضح منه أيضا أنه ﷺ كان يعُدّ كل لحظة من حياته لحظة أخيرة، وعندما كان ينام كان يحسم أمره مع ربه قبل النوم، وكأنه مستعد لكل تغيير.

فهناك رواية عن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ: كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ إِذَا أَوى إِلى فِرَاشِه نَامَ عَلى شِقِّهِ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قَالَ: اَللّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِيْ إِلَيْكَ وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِيْ إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِيْ إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ. لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ.

لقد علمنا النبي ﷺ هذا الدعاء وكان يلتزم به بنفسه أيضا.

يقول سيدنا المصلح الموعود ﷺ أن الناس يدققون حساباتهم قبل أن يغلقوا محلاتهم كذلك التجار يدققون حساباتهم التجارية قبل النوم ليلا، ولكن الناس لا يسوون الحساب الذي بينهم وبين الله تعالى ولا يهتمون به. وكم كان ذلك الإنسان ﷺ صالحا وورعا الذي كان ينشغل في أداء فرائض الله من الصباح إلى المساء،

وما كان يؤديها بنفسه فحسب، بل كان يراقب آلاف الناس الآخرين أيضا ليتأكد هل يؤدونها أم لا؟ لكنه قبل النوم ليلاً، كان يغمض عينيه عن جميع مساعيه وعباداته، ويقف متواضعا أمام ربه لتصفية حسابه، وكأنه لم يقم بأي خدمة، وما كان ينام حتى يُسلّم روحه بالكامل لله ويعلن براءته من الدنيا وما فيها، ويضع نفسه في يد الله.

وفي رواية عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ، مِنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَلَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مَنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَةً".

فبسبب حبّ الله تعالى، فضّل ﷺ حرية الذين يحبون الله تعالى ويذكرونه من ذرية إسماعيل على أقاربه وأحبائه. فإنه يمكن تحمّل عبوديتهم، لكن لا يمكن تحمّل فراق الذين يحبون الله تعالى. كيف يمكن أن يكون هناك مجلس يُذكر فيه الله تعالى، ويُذكر فيه حبه ﷻ، وأبتعد أنا عن ذلك المجلس؟ سبحان الله! ما أعظم شأن الحب الإلهي الذي كان ﷺ يخلقه في الناس! وقد بلغ غايته بنفسه أيضا. ثم ينصح ﷺ أتباعه بأن يكونوا منغمسين في كل حين وآن في حب الله وذكره، فقال: إن أحب الأعمال إلى الله أن يأتيك الموت ولسانك رطب بذكره.

وفي رواية عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيْكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: "ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى".

أما المسلمون المعاصرون فيقولون إن الجهاد هي أفضل الأعمال، بمعنى أن اضربوا أعناق العدو، لكنهم لا يضربون أعناق الأعداء بل يضربون أعناق أهلهم وهذا أكبر ذنب.

وعلى كلِّ حالٍ، فهنا يقول النبيُّ ﷺ إنَّ ما أُخبركم به خيرٌ من ذلك. فقال ﷺ: هو ذكرُ الله، فاذكروا الله، فإنَّ ذكرَ الله أعظمُ الجهاد. ويُتَّهَم المسلمون بالجهاد العدواني بينما التعليم الحقيقي هو هذا؟

يروي سيّدُنا معاذُ بن جبلٍ رضي الله تعالى عنه أن النبيَّ ﷺ قال: ما من شيءٍ أنجى من عذاب الله أعظم من ذكرِ الله. فإذا كان ذكرُ الله حاضرًا، فإنَّ الله تعالى يُنجيكم بسببه من أمورٍ كثيرةٍ ومن عقوباتٍ عديدة. وبسبب محبَّة الله تعالى، كان ذكرُ الله في كلِّ وقتٍ أحبَّ الأشياء إلى رسول الله ﷺ. ولذلك جاء في الرواية أن أبا هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ:

لأن أقول: سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلا الله، واللهُ أكبر؛ أحبُّ إليَّ ممَّا طلعت عليه الشمس.

كان ذلك شوقًا ومحبَّةً إلهيَّة، حتى إنَّه في آخر لحظات حياته ﷺ كان اسمُ الحبيبِ الحقيقيِّ جاريًا على لسانه المبارك.

ولهذا تروي عائشةُ رضي الله تعالى عنها أن النبيَّ ﷺ كان يقول في حال صحَّته: ما من نبيٍّ يُقبَض حتى يُرى مقعدَه من الجنَّة، ولا يُقبَض نبيٌّ حتى يُريَه الله مكانَه في الجنَّة، ثم يُخيَّر.

فلما حضرَ وقتُ وفاة رسول الله ﷺ، قالت عائشةُ رضي الله عنها: إنَّه ﷺ قال ذلك في حال صحَّته، وأنَّه يُرى مقعدُه من الجنَّة. فلمَّا دنا وقتُ وفاته ﷺ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي غُشِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى سَقْفِ البَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى"

فقلتُ: إذًا لن يختارنا، بل اختار الذهاب إلى الله. فعرفتُ أنَّها هي تلك الحال التي كان يُحدِّثنا عنها في صحَّته، حين أُعطي النبيُّ الخيار، قال: الآن إنِّي ذاهبٌ إلى الله.

وروت عائشةُ رضي الله تعالى عنها أنَّ آخرَ كلامٍ تكلَّم به رسولُ الله ﷺ كان: اللهمَّ الرفيقَ الأعلى.

إِنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كَانَتْ تَقُولُ: إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي، وَفِي يَوْمِي، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي[1]، وَأَنَّ اللهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ وَفَاتِهِ. دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَفِي يَدِهِ السِّوَاكُ، وَأَنَا أُسْنِدُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ، فَأَخَذْتُهُ فَكَانَ شَدِيدًا عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ، فَلَيَّنْتُهُ، ثُمَّ أَمَرَّهُ، وَكَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ – يَشُكُّ الرَّاوِي – فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ الْمُبَارَكَ وَيَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ»، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ وَجَعَلَ يَقُولُ: «فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى» حَتَّى قُبِضَ ﷺ وَمَالَتْ يَدُهُ.

وَقَالَ الْمَسِيحُ الْمَوْعُودُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: خُيّر رسول الله ﷺ في آخر وقته بين أن يبقى في الدنيا وأن يلحق بالله – عز وجل –، فقال: يا رب أريد أن ألحق بك الآن، ولما ودّعت نفسُه ﷺ المطهرة هذا العالم كانت كلماته الأخيرة هي:"بل الرفيق الأعلى" أي لا أريد أن أبقى في هذا العالم بل أريد أن أذهب إلى ربي فَحَضَرَ إِلَى رَبِّهِ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، وَبَارِكْ وَسَلِّمْ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

***

[1] السَّحْر : الرِّئَةُ وقيل السَّحْر ما لَصِق بالحُلْقُوم من أعْلَى البَطْن.

النحر : موضع الذبح من الرقبة. والمقصود أن الرسول ﷺ توفي ورأسه بين صدرها وذقنها رضي الله عنها.